(٩)

خلاف

نعم خلاف فى ظل الائتلاف(١) ، وشقاق تحت جناح الوفاق،وخصام فى أحضان السلام . ولم لا ؟ وأين وجدت الإخوة الذين لا يختلفون ؟ ومتى رأيت الأشقاء الذين لا يختصمون ؟ وإنما الحياة سبيل إلى اتفاق الرأى حينا واختلافه أحيانا ، ولاسيما حين تكثر المغريات ، وحين تتيح الحظوظ للأصدقاء الأصفياء أن يقوى بعضهم ، ويضعف بعضهم الآخر ، وأن يعز منهم فريق ، ويذل منهم فريق ، وأن تمتلىء أيدى جماعة منهم بالخير ، وتصفر أيدى جماعة أخرى من كل شىء .

والأحزاب المؤتلفة فى الحكم إنما تتألف من أفراد ، فيهم فضائل الناس ونقائصهم ، فهم يتفقون على المصالح العامة التى لا تعنى أشخاصهم ، وهم يختلفون عند المصالح الخاصة التى يمكن أن يفيدوا منها مالا أو جاها ، قليلا أو كثيراً .

---

(١) ١٩٣٣/٣/٢١ ، عدد ٢٣٤٠

وآية ذلك أن المؤتلفين فى الحكم لم يختلفوا لحظة فى إقامة الخزان ، لأن إقامة هذا الخزان واضحة النفع لمصر ، جلية الفائدة للمصريين ، ستحمل إلى أرض مصر الخصب ، وستكفل لأهل مصر الثراء ، وخزانة مصر قادرة على إقامة هذا الخزان ، لديها من المال أكداس مكدسة ، تستطيع أن تنفق منها بغير حساب دون أن تخشى فقرا ، أو تتعرض لإفلاس . ولا تصدق المستشار المالى فهو انجليزى يكره لمصر الخير ، ويضمر لها الشر ، ويأبى إلا أن يرى أرضها مقفرة مجدبة ، وأهلها معوزين معدمين ! وهو حين نصح للحكومة بألا تتعجل فى إقامة هذا الخزان ، وأظهر الإشفاق على خزانة الدولة ، لم يفكر إلا فى مصلحة الانجليز الذين يكرهون هذا الخزان ، ويخافون من إقامته فى السودان !

فلتحذر الحكومة وليحذر البرلمان ، وقد حذرت الحكومة فلم تحفل بالمستشار ، ولم تلتفت إلى رأيه ، ومتى حفلت وزارتنا القائمة برأى الانجليز ؟ ومتى قبلت وزارتنا القائمة نصيحة الانجليز ؟ وهى تشك فيهم كل الشك ، وترتاب بهم كل الارتياب ، وتأخذ نفسها منذ نهضت بأعباء الحكم بأن تكرههم على ما لا يريدون ، وتجرعهم ما لا يستسيغون(١) .

أعرضت حكومتنا عن نصيحة المستشار ، وأعرض عنها البرلمان أيضا ، واتفق الحزبان المؤتلفان فى هذا الإعراض أيضا ، فلم يسألا عن رأى المستشار ، ولم يحفلا به ، ولم يسألان ويحفلان ؟ والمستشار انجليزى يجب أن يسوء به ظن الحزبين المؤتلفين اللذين لا يأمنان للإنجليز ، ولا يحبان إلا إرغام الانجليز على الاعتراف بما لمصر من كرامة وسيادة وحق ... !

وتحقق الائتلاف حول جبل الأولياء فى أجمل صورة ، وأروع الشكل ، وانتصر الائتلاف فى هذه المسألة على خصمين عنيدين ، أحدهما الأمة المصرية التى لا تريد هذا الخصب ولا ترغب فيه ، والتى يجب أن تكره

---

(١) الأصل يسبغون ، ولعل الصواب ما أثبتناه

على أن تكون أرضها خصبة رغم أنوفها ، وعلى أن يكون أبناؤها أغنياء وإن كرهوا الغنى ، لأن سادة الساعة وحكام اليوم أعرف بمصالح الأمة من الأمة ، وأقدر على تحقيق منافع الشعب من الشعب ! وما قيمة الوزارة وما غناؤها إذا لم تسقنا إلى الخير ونحن كارهون ؟

والثانى هذا المستشار الانجليزى الذى إئتمر بمصر مع حاكم السودان العام ، فبينما كان الحاكم العام يجد فى إقناع وزارتنا بالإعراض عن إقامة الخزان رحمة بالسودانيين ، ورفقا بهم ، ورعاية لمصالح الانجليز فى السودان ، كان المستشار ينصح للوزارة أن تعرض عن إقامة الخزان حماية لخزانة الدولة من الضعف ، ولميزانية الدولة من الاضطراب .

وقد عرف الحزبان المؤتلفان كيف يثبتان لهذين الخصمين فيلقيان الأمة بالعنف والقهر ، ويلقيان الانجليز بالمهارة والمداورة ، وبالإعراض والإغضاء .

وانتصر الائتلاف مرة أخرى حين أثيرت سياسة التعليم ، وحين عرف الحزبان المؤتلفان أن هذه الأمة الجاهلة الغافلة تريد أن يشيع التعليم على اختلاف فروعه بين أبنائها على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، وأن انتشار التعليم على هذا النحو قد يمحو الجهل ويزيل الغفلة ، ويشعر الأمة بحقها وكرامتها شعورا قويا خطرا على طموح الطامعين ، وعبث العابثين ، واستئثار المستأثرين ، واحتكار المعصومين للحول والطول والقوة والسلطان . هنالك أحس المؤتلفون أن الائتلاف يتعرض للخطر ، وهنالك اجتمعت كلمة المؤتلفين على أن ضيق التعليم خير من سعته ، وعلى أن انبساط الجهل خير من انقباضه ، وعلى أن حكم الشعب رهين بأن يظل الشعب جاهلا غافلا ، وعلى أن العلم والفهم والكفاية والطموح إلى المثل الأعلى خصال يجب أن تكون مقصورة على الأغنياء وأشباه الأغنياء . وحسب أبناء الشعب أن يعملوا فى المزارع والمصانع ، وأن يظلوا رعية صالحة للتذليل والتسخير .

هنالك قوى الائتلاف وأحكمت عقدته ، وأيد الحزبان المؤتلفان وزير التقاليد ، وانتصر الائتلاف أيضا حين تعرض لهو الأجانب وعبثهم للخطر ، وحين هم بعض النواب بإلغاء معونة الأوبرا ، وحين ظهر أن هذه الفكرة خبيثة ، ظاهرها الرفق بخزانة الدولة ، والعطف على الذين يؤدون الضرائب ، ويلقون فى أدائها صروف الجهد ، وألوان العناء ، وباطنها حرمان الأجانب لذة مشاهدة التمثيل والاستماع للغناء ، والاستمتاع بالرقص ، وكيف يستقيم الأمر إذا حرم الأجانب ما يطمحون إليه ، ويطمعون فيه من هذه اللذة المترفة تضاف إلى ما يستمتعون به من تفوق على المصريين فى كل شيء ، وامتياز من المصريين فى كل شيء ! يجب أن يذعن المصريون ، ويجب أن يلهو الأجانب ! وعلى ذلك تمت كلمة الائتلاف ، وحول ذلك أحكمت عقدة الائتلاف . وتستطيع أن تطمئن وأن ترضى فلن يتعرض الائتلاف لخطر ما دامت المصلحة العامة الجلية الواضحة تدعو إلى قوته واستحكام أمـــره .

أما حين تعرض المسائل التافهة التى لا خطر لها ولا غناء فيها ، فجائز ، بل واجب أن يختلف المؤتلفون ، ويفترق المتفقون ، ويتصدع الائتلاف اليوم ليرأب صدعه غدا .

انظر إلى الحزبين المؤتلفين يشتد بينهما الخلاف حتى ينذر بالخطر العظيم ، وحتى يجد الوزراء فى التوفيق ، وحتى يخرج الأعضاء على قرارات الأحزاب ، وحتى يستقيل بعضهم أو ينذر بالاستقالة ، لأن مجلس النواب فى حاجة إلى وكيلين . والحزبان المؤتلفان يطمع كل منهما فى أن يكون منه الوكيلان دون صاحبه .

هذه مسألة يسيرة لا خطر لها فى حقيقة الأمر ، فسواء على مصر أن يكون الوكيلان من حزب الاتحاد أو من حزب الشعب ، وسواء على الانجليز خاصة والأجانب عامة أن يكون الوكيلان من حزب الاتحاد أو من حزب الشعب ، فسيقام الخزان ، وسيضق التعليم ، وسيكون التمثيل والرقص

والغناء ، ولكن حزب الشعب شديد الطمع ، لا يعرف حدا لهذا الشره إلى التسلط والسيطرة . فلم يكفه أن يستأثر بالحكم ومناصب الوزارة حتى يريد أن يحرم صديقه وشقيقه كل شيء .

وقد احتمل حزب الاتحاد من حزب الشعب أهوالا ثقالا ، فرئيس حزب الشعب يقصى وكيل الاتحاد لهذا ، ورئيس حزب الشعب يرقى الشعبيين إلى الوزارة ، ويترك وزارة الداخلية فلا يضع فيها شعبياً ولكنه لايضع فيها اتحاديا أيضاً ، وإنما يختار لها رجلا يقال إنه بعيد عن الأحزاب ، ثم يحتاج مجلس النواب إلى وكيلين ، فإذا حزب الشعب لا يدع هذين المنصبين لحزب الاتحاد المظلوم ، بل لا يدع له منصبا من المنصبين ، وإنما يريد أن يستأثر بهما جميعا .

أإذا تكون كريهة أدعى لها .. وإذا يحاس الحيس يدعى جندب ؟(١)

نعم كذلك أراد الله لحزب الاتحاد فى هذه الأيام . والله يداول الأيام بين الناس ، والله يذل أحزابا ، ويعز أحزابا . والله يجعل بعض الأحزاب رءوسا وبعضها أذنابا . والله يثير فى نفوس الاتحاديين وقلوبهم نارا تتأجج ، وطبيا يضطرم ، لأنهم فرطوا فى وكيلهم وخذلوه ، ولو قد عرفوا كيف يؤيدونه وينتصرون له ؛ لعرف هو كيف ينتصف لهم ويرد عنهم طغيان الحزب الصديق الشقيق .

كذلك يتحدث حزب الاتحاد إلى نفسه ، وببعض ذلك يتحدث حزب الاتحاد إلى الناس . أما حزب الشعب فله الحكم وعليه تبعات الحكم ، فيجب أن يكون له الحظ الموفور من منافع الحكم ومزاياه .

وما كان لحزب الاتحاد أن يسمو إلى مناظرته أو مخاطرته ، وليس رئيسه بالذى يستطيع أن يثبت لرئيس حزب الشعب وقد خذل وكيله فأصبح

---

(١) هذا البيت لعنترة العبسى . والكريهة : الحرب . الحيس : الطعام ؛ والمعنى : تستنجدون بى فى وقت الشدة ، وتهملونى وتتجاهلونى فى وقت الرخاء .

جسدا بلا روح . فليقنع إذن بما أعطاه الله ، وبما نزل له عنه حزب الشعب ، وإلا فإن حزب الشعب قادر على أن يستبدل قوما مكان قوم ، وحزبا مكان حزب . أليس يقال إن فى مجلس النواب حزبا ثالثا ، وإذن فليذكر حزب الاتحاد قول الشاعر القديم :

قدر لرجلك قبل الخطو موضعها فمن علا مرة عن غرة زلجا

وعلى هذا النحو يختلف المؤتلفون ، ويفترق المتفقون . والأمة تنظر إلى هذا الائتلاف فتبتسم ، وإلى هذا الاختلاف فتضحك ، كما يبتسم ويضحك من ينظر إلى لعب اللاعبين . والأمة تعلم حق العلم أن اختلاف الحزبين لن ينفع ، وأن إئتلافهما لن يفيد ، لأنهما لا يملكان طاعة وإذعانا لمن بيده الخيط ، هذا الذى يستريح الآن فى مينا هاوس(١) ، والذى يترك الحزبين يلعبان لأنه متعب ، أو لأنه سئم ، أو لأنه يريد أن يلهو ، حتى إذا فرغ من اللهو بلعب حزبيه ، جذب الخيط فإذا الائتلاف قوى متين ، وإذا الصلات بينهما على أحسن حال من المودة والصفاء .